



المصريون

10 أكتوبر 2014

توفيق حنا

المصريون، هذا الشعب المدهش، الجنس البشري الوحيد الذي يستطيع بإرادته وبالرضا عن قائده أن يحول الهزيمة لنصر، جاء محمد علي ليحده غارقاً في فوضى (الخلافة) العثمانية ومطموراً في وحل الجهل والعزلة فيرضى المصريون عن محمد علي قائداً ويتحولوا معه لدولة عظيمة في أقل من خمس سنوات، كذلك حينما خرجوا مهزومين عام 67 مثلهم مثل الأمريكان الذين خرجوا مهزومين في فيتنام ولكن الفرق أن الأمريكان انزلوا عن العالم مقهورين عشرة سنوات حتى استدعاهم السادات ليخرجوا من عزلتهم عام 78 مشاركين في معاهدة السلام بينما المصريون لم ينزلوا كالأمم الكبرى واستطاعوا تحويل هزيمة 67 إلى انتصار 73 في أقل من خمس سنوات، المصريون شعب له بصمته، شعب يحاول اليوم مع عبد الفتاح السيسي أن يستعيد مجده من جديد بعد ثلاث سنوات كاد أن يضيع فيها مجد مصر كله تحت راية الإخوان السوداء، انهم المصريون الذين كتب عنهم قاسم أمين أيضاً ما وددت أن أقدمه لكم اليوم في مقالي هذا.

إهداء إلى: جمال حمدان عالم الجغرافيا المصري النبيل ومؤلف ذلك العمل الباقي والشامل "عبقرية المكان" والذي عاش أيامه في عزله أشبه بعزلة الرهبان. حياه بسيطة ومتواضعة متفانيا في حب وطنه.. مصر. ألفه بالفرنسية قاسم أمين (1894) وقد نقله للعربية حفيد قاسم أمين والذي يحمل نفس اسم جده وقد صدر هذا الكتاب "المصريون" عام (1995)، في سلسلة كتاب الهلال (سبتمبر) وأبدع غلافه الفنان المصري القدير حلمي التوني في لوحة تعبر اصدق تعبير عن المصريين منذ قرن من الزمان .

ألف قاسم أمين هذا الكتاب "المصريون" رداً على كتاب الدوق دار كور " مصر والمصريون "، وكان هذا العمل تمهيداً لكتابه عن المرأة المصرية وهما: "تحرير المرأة" عام (1899) و"المرأة الجديدة" عام (1900) ويقول المترجم عن جده العظيم:

" إن اغلب الناس تعرف قاسم أمين على انه صاحب كتاب (تحرير المرأة) (1899) وكتاب "المرأة الجديدة" عام (1900) وكتاب "أسباب ونتائج" وقرأوا له بعض كلماته المأثورة التي جمعها ونشرها أستاذ الجيل "لطف السيد" في كتاب صغير تحت عنوان " كلمات قاسم أمين". ويقول المترجم أيضاً:

" اشتهر قاسم أمين على انه محرر المرأة ولكن الكثير لا يعرف شيئاً عن أسرار حياته.

لا يعرف الكثير شيئاً عن اتصاله بجمال الدين الأفغاني أو عن صداقته بمحمد عبده أو عن تاريخه كقاضي وعن اشتراكه في إنشاء الجمعيات الخيرية وعن جهده الكبير في إنشاء الجامعة المصرية".

المترجم قد انتهى من كتابه عن جده قاسم أمين وعما لاقاه من عنت واتهام وصل إلى حد انه تردد في وقته أن مؤلفاته لم تكن من وضعه ولا بأسلوبه... ترى هل نشر هذا الكتاب الذي وعد بوضعه الحفيد الوفي قاسم أمين؟.

ولكن ما الذي دعا الحفيد قاسم أمين إلى ترجمة كتاب جده "المصريون" يقول اغلب ظني أن أحدا لم يطلع على كتاب المصريون" بالفرنسية في الرد على الدوق "دار كور" لأنه لم يطبع إلا مرة واحدة ولأنه لم يترجم إلى العربية قبل الآن، وأستاذنا الكبير لطفى السيد هو الذي أوحى إليّ بترجمته وقال (لعل في نشر هذا الكتاب فائدة تعود على قراء الجيل الجديد لما فيها منه أسوة صالحة من سلف صالح) ولعل اختيار موعد نشر هذا الكتاب في شهر سبتمبر إشارة إلى دفاع قاسم أمين عن الزعيم المصري عرابي الذي كان في المنفى عندما نشر كتاب "المصريون" ونلمس نموذجاً رائعاً لأدب الحوار في رده على الدوق داركور".

“في هذه السطور القليلة رد مختصر على الأفكار التي سجلها الدوق داركور عن المصريين “ ويقول “ واطلب المعذرة من إخواني الأوروبيين إذا كنت قد هاجمتهم في بعض الأحيان ، وأنى أؤكد أن هذا لم يقلل من تقديري ... وأنى أرجوهم على كل حال ألا ينكروا على حسن النية المطلق وألا يظنوا إلا إنني ما قلت شيئاً إلا وأنا مقتنع به”، وفي نهاية المقدمة يقول قاسم أمين:” وأخيراً فأنى أقدم اعتذاري عن عجز وجدونه في أسلوب الأجنبي الذي لا يطمع في شئ إلا أن يعبر في صراحة ووضوح عن أفكاره “.

وعن دور قاسم أمين في محاولة تطوير مصر إنسانياً واجتماعياً وحضارياً يقول د. رءوف عباس في موضوعيه علمية وبوعي مستنير وفي تقدير عميق لهذا الدور:

“قاسم أمين” (1863) – (1908) مفكر اجتماعي ينتمي إلى جيل فريد من المثقفين المصريين. تلقى تعليمه في أواخر عهد إسماعيل ومطلع عهد توفيق وتفتح وعيه السياسي والاجتماعي في عهد الاحتلال البريطاني. تربي على الثقافة الإسلامية التقليدية بقدر ما تربي على فكر رفاة الطهطاوي الذي صاغ نظام التعليم في ذلك العهد ، وكان كتابه “ مناهج الألباب المصرية” كتاب قراءة في المدارس التجهيزية الثانوية التي تعلم فيها قاسم أمين “ كما نهل من الثقافة الأوروبية سواء في المدارس المصرية أو في جامعة “مون بلييه” بفرنسا التي درس فيها الحقوق (1881 – 1885) ، فامتزج في تكوينه الثقافي الموروث الإسلامي بالمكتسب الغربي ليخرج لنا قاسم أمين فكراً وطنياً يعبر عن رؤيته للنهضة التي يتناها في لبلاده.

وعن كتاب المصريون يقول دكتور رءوف عباس: يستهل قاسم أمين هذا الكتاب بالحديث عن خصوصية التكوين الاجتماعي لمصر، مؤكداً أن المسلمين والأقباط في مصر يكونون نسيجاً مصرياً واحداً ، لان المسلمين هم في الأصل أقباط تحولوا إلى الإسلام، ومن ثم لا يمكن التمييز بين المسلم والقبطي في مصر ، فكلاهما يستمد عاداته وتقاليده ونمط حياته من تراث عمره آلاف السنين ثم يقول : ودفع قاسم أمين عن المصريين تهمة الذل والخنوع والاستسلام ، فأكد أن المصريين لا يقبلون الضيم ويهبون دفاعاً عن الشرف والعرض ، وإنهم يتسمون بالصلابة ورباطه الجأش عند الشدائد ودفاع دفاعاً مجيداً عن العسكرية المصرية

وجاء تحليل قاسم أمين لأسباب هزيمة الجيش المصري بقيادة احمد عرابي أمام الإنجليز تحليلاً موضوعياً ينم عن معرفة عميقة بالتاريخ القومي الذي عاصره قاسم أمين ، وهو يعزو الهزيمة إلى انقسام الضباط بين مؤيد للخديوي ، يمدد بكل الأسرار الحربية ، فينقلها إلى الإنجليز ، ومشايخ لعرابي والثوار، مما اضعف الجبهة المصرية . وجاءت الخيانة والموقف المتخاذل للسلطان ، الذي أعلن عن عصيان عرابي ، ليساعد بذلك الإنجليز لإحراز نصر مهم ... وهنا نجد قاسم أمين ابعده نظراً من مصطفى كامل وأشياعه الذين علقوا وزر الهزيمة في عنق عرابي وأنصاره، واتهموهم بالتقريط في الدفاع عن وطنهم.

فجاء قاسم أمين من موقع القاضي العادل ليرد للعرابيين اعتبارهم الوطني ثم يقول د. رءوف عباس “ وفي رأينا أن هاتين الفكرتين : الجماعة الوطنية التي تضم المسلمين والأقباط في نسيج واحد”، ورد الاعتبار للعسكرية المصرية وإنصاف العرابيين ، هما أهم ما يلفت النظر في هذا الكتاب “ ثم يقول أخيراً : ولعل هذا الكتاب كان الحافز الذي دفع قاسم أمين لتقديم أفكاره الخاصة بتحرير المرأة في كتابيه “تحرير المرأة”(1899) والمرأة الجديدة (1900) الذين عبرا عن فكره الاجتماعي اصدق تعبير واكسبها المكانة التي احتلها في الفكر العربي الحديث”

وبعد هذه المقدمة الشاملة، بموضوعية نستمتع إلى تحقيق تصور لنا الجو السياسي والاجتماعي الذي ظهر فيه هذا الكتاب وصاحب هذا التحقيق الجاد والهام هو الصديق الراحل احمد عباس صالح الذي يقرر:

“ ربما كان كتاب تحرير المرأة ثم كتاب المرأة الجديدة أكبر الكتب التي ظهرت في المائة وخمسين سنة الماضية حظاً، لقد استقبل الكتابان أبان صدورهما بعاصفة من الاحتجاج والاتهامات المبالغة الفظاظية ، ومع ذلك لم تكذب تمضى سنوات حتى قامت حركة نسائية قوية في مصر، فكان كتاب تحرير المرأة هو البيان الثوري الذي أعلنته ، وكانت أول الإشارات لذلك هي رفع الحجاب الذي قامت به هدى شعراوي وصاحبتها متحديات كل الكبار الذين هاجموا قاسم أمين وعن كتاب المصريون يقول احمد عباس صالح :

“بعد قراءة كتاب المصريون يشعر القارئ انه كان يرد على هجوم داركور على مصر والمصريين، ورغم حماسه بمصريته إلا انه توقف طويلاً عند كثير من العيوب... وحاول أن يوضح أسبابها... ولقد حمل الاحتلال والاستبداد مسئولية كثير من أوجه التخلف ... ثم يقول: ومن المؤكد أن دور قاسم أمين في الحياة الفكرية والسياسية في مصر كان سيكون اكبر مما قام به لو أن العمر امتد به.. ولكنه توفي قبل أن يتم الخامسة والأربعون.. وقد رشحه سعد زغلول فعلاً ليكون وزيراً للحقانية، ولكن تشكيل الوزارة لم يتم وكانت الصداقة التي تربط بين الرجلين قوية جداً إلى الدرجة التي يمكن اعتبارها صداقة فريدة بين المعاصرين.

ولقد أهدى قاسم أمين كتابه المرأة الجديدة إلى سعد زغلول: إلى صديقي سعد زغلول، فيك وجدت قلباً يحب وعقلاً يفكر وإرادة تعمل.

أنت الذي مثلت إلى المودة في أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء، وان فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها..

يبدأ الكتاب بهذه الصورة الشخصية – البور تزيه التي يرسمها قاسم أمين للفلاح المصري “ إن الفلاح المصري سواء كان مسلماً أو قبطياً له ، بوجه عام ، قامة كبيرة وهو قوى وله نية طيبة ، ويتمتع بنشاط جسماني نادر ، وهو يرتدى الملابس البسيطة وغذاه رديء ومسكنه أردأ.

<http://voiceofbelady.com/news/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B5%D8%B1%D9%8A%D9%88%D9%86/>